محاضرة 13/شعر الاستصراخ

1/معنى الاستصراخ

الاستصراخ في لسان العرب مصدر من استصرخ، بمعنى استغاث، أما الاستصراخ شعراً فقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالأندلس حين كانت في طريقها للإشاحة، وبسقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، وهو شعر يقوم على استصراخ الخلفاء والملوك، من أجل طلب النصرة والعون والمدد، كما يرمي إلى شحذ همم المسلمين في العدوة المغربية للدفاع عن الأندلس عبر الجهاد في سبيل الله، وقتال النصارى المستولين على الحواضر الإسلامية الكبرى(وقد جرت العادة أن ترافق قصيدة الاستغاثة مكتوباً سلطانياً يتوجه به سفير إلى هذا الملك أو ذاك، وقد يرتجلها السفير نفسه على لسان سلطانه وقومه)[1].

2/مفهوم شعر الاستصراخ:

شعر الاستصراخ يتناول هموم الأمة والسقوط الذي آلت إليه البلاد وبالتالي فهو شعر ملتزم بقضايا المجتمع أساسا ، فهو يحدد الأسباب ويرسم الخطط ، ويجوب الآفاق بحثا عن الدعم من قبل المصرخين ويمتد زمن هذه الأشعار حوالي أربعة قرون.

3/نماذج من شعر الاستصراخ:

اشتهر موضوع الاستصراخ وبرز في قصائد الأندلسيين، حيث كتبوا أبياتا يرثون فيها مدنهم، ويبكون على ما أصابها من خراب ودمار، وقد تنوعت مواضيع شعر الاستصراخ من شاعر إلى آخر، ونجد من أبرز المواضيع الشّائعة ما يلي:

أ. وصف ازدهار المدن و مجدها قبل الدمار

وصف المدينة قبل الفتنة ووقوع الحادثة من الموضوعات التي أدرجها شعراء الشرق والغرب الإسلامي في قصائدهم لرثاء المدن وعبروا عن حزنهم من خلال تصوير المدن قبل خرابها. فنرى الخريمي (أوائل القرن الثالث الهجري) في رثاء مدينة بغداد يعبر عن حزنه الشديد على الأحداث التي طغت على المدينة ويعرب عن حزنه بوصف جمال مدينة بغداد ونضارتها ورحابتها ومجدها وازدهارها. فالشاعر في مطلع قصيدته اعتبر بغداد عروسا ذات مظهر ساحر ومغري، وللإعراب عن الأسف على ضياع الازدهار وحضارة البلد الإسلامي –وهو بغداد–

يستخدم عناصر تصويرية مختلفة. وهو يهاجم خلفاء عصره ويعتبرهم السبب الرئيس لهذا الدمار وهكذا بلغة بسيطة وبليغة وبعيدة عن التصنع يلقي حزنه العميق على الجمهور ويقول:

قالوا: و لَم يَلعَبِ الزَّمانُ بِبَغ دادَ و تَعثُر بِها عَواثِرُها

إذ هى مِثلُ العَروسِ بَاطنُها مشوّقٌ لِلفَتى و ظاهرُها

جنَّةُ خُلدٍ و دارُ مَغبَطةٍ قلَّ مِن النائِباتِ واترُها

(الطبرى، 1966م: ۸/ ۴۴۸)

سقوط بغداد على يد المغول عام 656ق/ 1258م وآثار هذه الحرب الدموية والقتل الوحشي انعكست في شعر كثير من الشعراء آنذاک. فللتنوخي قصيدة في هذا المجال تستحق النظر وهذا مطلعها :

تاجُ الخلافةِ و الرُّبعُ الّذى شَرُفَت به المَعالِمُ قد عَفّاه إقفارُ

(ابن تغرى بردى، 1963م: 51/7)

يشير الشاعر إلى ازدهار ومجد العصر الذهبي في أيام حكم العباسيين الذين كانوا ذات يوم زعماء لأكثر الحضارات رقيا. واليوم تلك المدينة التي كانت في يوم من الأيام مهد العلم ومركز للمعارف وعاصمة الخلافة العباسية تحولت الآن إلى رماد جراء هجوم المغول. في هذه القصيدة يصور الشاعر الوجود والازدهار والسلطة التي تليها العدم والانهيار والفناء.

وهناك قصيدة مؤثرة للسري الرفاء يبكي فيها الشاعر المدينة وذلك بعد حدوث فيضان نهر الموصل والذي أدى إلى تدمير منازل الناس وتشويه صورة المدينة. ويعتبر الشاعر الكوارث الطبيعية سببا في دمار الموصل والتي اجتاحت هذه المدينة وغيرت وجه الأرض وما لها من ازدهار وخضرة وتأتي كلها غالبا في أسلوب يتميز بالبساطة والوضوح يعبر فيه الشاعر عن الرعب والخوف والقلق والفزع الذي يدور في المدينة ومن خلال ذلك حاول أن يذكر فضائل مدينة الموصل ومحامدها ويتذكر الأيام الخوالي:

مَضَت نَومَةُ التَّعريس فى ظلِّ أمنِهِ و أعقَبَها ليلُ السَّليمِ المُسَهَّدِ

أرى بَلَداً يَشكو مِن الماءِ مِثلَ ما شَكا الغِمدُ مِن حَدِّ الحُسامِ المُهَنَّدِ

وقد وصف شعراء الأندلس مثل شعراء الشرق جمال مدن الأندلس قبل وقوع الأحداث للتعبير عن حزنهم وأسفهم على فقدان أراضيهم وعبروا للجمهور عن أسفهم من خلال وصفهم لمجد المدينة الماضي ورونقها قبل الخراب.

ومن ذلك قصة سقوط مدينة بلنسية عام 1238 م وما حلت بها من مصائب فنرى ابن عميرة المخزومي (658ق / 1258 م) قام بوصف جمال هذه المدينة وقد تأثر بما حل بها من خيانة وخراب إذ يقول:

أما بَلَنسِيّةُ فَمَثوَى كافرٍ حَفَّت به فى عُقرِها كُفّارُهُ

زَرعٌ مِنَ المَكروهِ حَلَّ حَصادُهُ بِيَد العدوِّ غداةَ لَجّ حِصارُه

و عزيمةٌ لِلشِّرك جَعجَعَ بِالهدى أنصارُها إذ خَانَهُ أنصَارُه

مَا كانَ ذاك المصرُ إلاّ جَنَّةً لِلحُسن تَجرى تَحتها الأنهارُه

من السّمات البارزة لهذه القصيدة استخدام اللغة المقارنة لوصف الماضي والحاضر للمدن المحتلة والتي لعبت دورًا مهمًا في إثارة مشاعر وعواطف الجمهور. يصور الشاعر في هذه القصيدة ماضيًا مجيدًا لمدينة بلنسية ويقارنها بوضعها الحالي المؤسف وقد حولها أعداؤها إلى أطلال وقد دمروا مجده وكرامته.

ونرى شاعرا مجهولا يصور أوضاع المسلمين في مدينة رندة التي استولى عليها المسيحيون (عام 890ق) يعبر عن مشاعره تجاه ما حل بالإسلام بموسيقى حزينة ومشاعر صادقة وعميقة ويروي في قصائد طويلة حزنه وتألمه بهذه الطريقة:

و كانَت عُقاباً لا يُنالُ مَطارُها و مَعقِلَ عِزٍّ زاحَمَ النَسرَ صورُها

يصف الشاعر بلغة بسيطة وبليغة المدينة المجيدة التي أطاح بها المحتلون مشيرا إلى المكانة الرفيعة والمهيبة لهذه المدينة التي كانت دائمًا في ذروة السلطة والاقتدار. وقام بتشبيه مدينة رندة بانسان يحاول المقاومة أمام العدو ليري للمتلقي مناعتها وعدم إمكانية الوصول إليها بسهولة. ...

يقول ابن حزم الشاعر الأندلسي (426-382ق)

لَئِن كانَ أظمَانَا فَقَد طَالَ ما سَقَى وإن ساءَنا فيها فَقَد طَالَ ما سَرّا

وينعى الشاعر مدينة طافت حولها وأمضت ساعات سعيدة في قصورها. إنه يصف المشهد بدقة وأناقة وذكاء ويرسم مفارقة تصويرية جميلة بين أيام مجد قرطبة الطويلة ومحنتها الحالية وذلك بهدف الحد من شدة تأثير المأساة على الجمهور. بحدة نظر خاصة يقارن الشاعر الكلمات السلبية "أظمأنا وساءنا" بالكلمات الإيجابية

"سَقَى وسَرّا" وبإضافة كلمة "طالَ" زاد وزن وتأثير الكلمات الإيجابية على السلبية لإعطاء المتلقي قليلا من الراحة كأنه يقول لا تفزع فرغم أن هذه الحادثة المريرة قد أحزنتنا لكننا عشنا في هذه الأرض لفترة طويلة في نعمة وراحة. إذا فإن استخدام طريقة المفارقة الدلالية هذه قد أثرى معنى الشعر .

ب. البحث عن جذور الفتن والأحداث

الانقلابات والصراعات المختلفة والحروب المتتالية في الشرق والغرب الإسلامي تعد من أهم العوامل في تغيير مصير الأمم والشعوب. ومثال على ذلک مأساة بغداد في معركة أمين ومأمون (عام 196ق) التي أدت إلى اضطراب شديد في الحياة السياسية في أراضي الأندلس مما دفع العديد من الشعراء للتعبير عن مشاعرهم وخلجاتهم النفسية تجاه وطنهم وأخذوا يبكون لحال بلادهم بتأليف قصائد غاية في الروعة وقوة أثر في المتلقي.

وهكذا ينشد الخريمى –وهو أحد شعراء العصر العباسي– في رثاء بغداد:

فَلَـــم يَـــزَل و الزَّمـــانُ ذو غِيَـــرٍ يَقـــدَحُ فـــى مُلكِهَـــا أصَـــاغرُها
حَتَّـــى تَسَـــاقَت كَأســـاً مُثَمِّلَـــةً مِـــن فِتنَـــةٍ لا يُقـــالُ عَاثِرُهـــا

ويصور الشاعر غروب شمس السلطة في بغداد وانهيار حكم الخلفاء العباسيين ويشير إلى الخلافات والفتن المثارة من أجل الوصول الى السلطة والتي جرت بين الأخوين أمين ومأمون وهما يدمران المدينة كأنهم أناس سكارى لايدرون ما يفعلون. ويلوم الشاعر مرتكبي هذه المأساة ولا يعتبر خطاياهم مغتفرة. ثم يشير الى تشرد أقوام ورجال كبار كان لهم يد في جهاز الحكومة ثم ابتعدوا وتنحوا عن القضايا السياسية وإن مثل هذا الانسحابات من السلطة أدت إلى خلافات وانقسامات بين العباسيين.

بعد أن احتل ألفونسو العاشر ملك قشتالة مدينة قرطبة عام 665م صرخ أبوالبقاء الرندي (601ق – 684ق / 1204م – 1285م) في حالة من اليأس والخيبة ضد هذا الانهيار والاستسلام لمطالب العدو المسيحي وذلک في قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

لِكُلِّ شَيءٍ إذا مَا تَمَّ نُقصَانُ فلا يُغَرَّ بطِيبِ العَيشِ إنسانُ
هى الأمورُ كما شاهَدتُها دُوَلٌ مَن سَرَّهُ زَمَنٌ ساءتهُ أزمانُ
فَجَائِعُ الدَّهرِ أنواعٌ مُنوَّعَةٌ ولِلزَّمانِ مَسَرّاتٌ وأحزانُ
ولِلحَوادثِ سُلوانٌ يُسَهِّلُها وما لِمَا حَلَّ بالإسلامِ سُلوانُ
دَهَى الجَزِيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ لهُ هَوى لهُ أُحُدٌ وانهدَّ ثَهلانُ

كما اختار أبوالبقاء مقدمة حكمية لقصيدته النونية وحذا فيها حذو شاعر العصر العباسي أبو الفتح البُسْتي معتمدا أسلوب وسياق قصيدة البستي النونية هادفا تعميق تأثير كلمته وزيادة حلاوتها وجمالها مصورا الأحداث والمصائب التي حلّت بالأندلس وأهلها من نفي وتهجير وتفكك الأرض إلى خيانة بعض المرتزقة.

ج. التحسر والأسف

التحسر والإعراب عن الأسف على ما فات هو أحد الموضوعات الرئيسية في قصائد الرثاء وهي وسيلة لذكر المصيبة والتعبير عن الحزن والتأثر. وأهمية هذا الموضوع في مراثي شعراء الشرق والغرب الإسلامي كبيرة لدرجة أن بعضهم بدأ قصيدته بالدموع والتألم ومن بين هؤلاء الشعراء ابن الرومي (283/221ق - 896/836م) الذي استطاع أن يجعل أجواء القصيدة حزينة باستخدام عناصر التصوير وأسئلة استفهام إنكاري وبطبيعة الحال زاد من جمال القصيدة حيث يقول:

أيُّ نـــومٍ! مـــن بعـــدِ مـــا حَـــلَّ بالبصـــ ـــرَةِ ، مـــن تلكُـــمُ الهَنـــاتِ العِظـــامِ؟
أيُّ نـــومٍ! مـــن بعـــدِ مـــا انتهـــك الزَّنـــ ـــجُ جَهـــاراً، مَحـــارِمَ الإســـلامِ؟
لَهـــفَ نَفسِـــي عليـــك ! أيّتُهـــا البَصـــ ـــرةُ لَهفـــاً كمثـــلِ لَهـــبِ الضِّـــرامِ !
لَهـــفَ نَفسِـــي عليـــك ! يـــا مَعـــدِنَ الخَيـــ ـــراتِ لَهفـــاً يُعِضُّـــني إبهـــامِي!
كـــم أغَصُّـــوا مـــن شـــاربٍ بشـــراب كـــم أغصُّـــوا مـــن طـــاعم بطعـــامِ ؟

يبدأ ابن الرومي مطلع قصيدته بترديد بعض الكلمات (أىّ، لهفَ، كم و ...) ليخلق جوا عاطفيا حزينا من أجل لفت انتباه الجمهور إلى الموضوع وبتكرار هذه الكلمات يقدم الشاعر الخلفية للقارئ لإكمال القصيدة في ذهنه والبحث عن إجابات لها وبالتالي فإن أسلوب الاستفهام له دور فعال للغاية في تصوير التفاعلات الداخلية للشاعر والمتلقي. (أمين مقدسى، 1396ش: 66) لأن السؤال عندما يبرز فى مقدمة النصّ الشعرىّ يقود بنية العبارة للانطلاق فى دينامية التخييل وفورية التواصل مع المتلقّى، وهو يمثّل دائماً الذروة المدببة المسنونة للموقف الشعرىّ، ويمتاز السؤال أيضاً بفاعلية التحوّل، وتنويع الدلالة، لأنه يسهم فى إطلاق سراح الجمل من سجن التقرير أو الثبات، ويسهم أيضاً فى شحن الموقف الشعرى بفيض من الدلالات والإيحاءات المتتالية.

وهذا ابوالبقاء الرُّندى ينشد بتحسر:

فأســـأل بَلَنســـيةً مـــا شـــأنُ مُرســـيةٍ و أيـــن شـــاطبةٌ أم أيـــن جَيّـــانُ
و أيـــن قُرطُبَـــةٌ دارُ العلـــومِ، فكـــم مـــن عـــالمٍ قـــد ســـما فيهـــا لـــهُ شـــانُ
و أيـــن حِمـــصٌ و مـــا تَحويـــه مـــن نُـــزَهٍ و نهرُهـــا العَـــذبُ فيّـــاضٌ و مَـــلآنُ

ويؤكد الشاعر من خلال طرح الأسئلة على التناقض الواضح بين الماضي الذهبي لمدينة الأندلس وحالها

المظلم ويرفع صرخاته الصاخبة المدوية ويشجع الناس على الجهاد. فإن تعدد الأسئلة في هذه القصيدة يدل على قلق الشاعر وضيقه والاضطراب الداخلي والألم والحزن في كلامه ويبدو أن الشاعر أراد ضمنيا أو تلويحا أن يشير إلى أن العقوق والإصرار على الخطيئة ونسيان الأوامر الإلهية جاء سببا في حدوث هذه الكوارث والمصائب.

من السمات البارزة لهذه القصيدة تباين الكلمات في أبياتها وبهذه الطريقة استخدم الشاعر كلمات متناقضة مثل الكفر والإسلام والذل والكرامة والسيطرة والعبودية و.. لتصوير الماضي الذهبي للأندلس والوضع الفوضوي الراهن للمسلمين. ومن خلال خلق مفارقة تصويرية في جميع أنحاء القصيدة استطاع أن ينقل للجمهور المسافة الشاسعة بين عصر الشرف والإذلال للمسلمين في هذه الأرض.

د. العاطفة الدينية

تظهر الحقائق التاريخية كيف اختفت آثار الإسلام وتغيرت مظاهر الشريعة بعد الغزو المغولي للأراضي الإسلامية والغزو الإسباني للأندلس حتى جعل البعض يقول: المتأمل فى حقيقة هذا الصراع، يدرك أنه لم يكن صراعاً من أجل دوافع عسكرية أو أطماع اقتصادية، وإنما كان حرباً دينيةً تماثل الحملات المتعاقبة التى استهدف أقطار العالم العربى وأصقاعه (حمدان، 2009م: 590) ونتيجة لهذه التصرفات التي قام بها العدو المعتدي المحتل في تدمير آثار الحضارة الإسلامية أثيرت مشاعر الشعراء ومواهبهم وقاموا بتصويرها في قصائد مؤثرة تصف ما حل بأرض الأندلس والشرق الإسلامي من خراب ودمار ونهب.

يمكن تلخيص الموضوعات الدينية المشتركة في مراثي مدن الشرق والغرب الإسلامية في ما يلي:

-**استنهاض الروح الجهادية** :ابن رومي يحرض أهل البصرة على الجهاد ونضال المعتدين في قصيدته الميمية ويقول:

اِنفِروا أيُّها الكرامُ خِفافاً و ثِقالاً إلى العَبيدِ الطَّغامِ

فالشاعر بكلماته الملحمية التي تنم عن حزنه الداخلي وانحيازه لوطنه وشعبه يدعو أهل البصرة إلى معركة أخرى من أجل الانتقام ولا يقبل الذل والصمت أمام العدو. وباستخدام عناصر تصويرية يحاول إثارة حماسة أهل البصرة وتشجيع الجهاد والانتقام من الزنكيين .

-**الدعوة للصبر** :لشعراء الشرق والغرب الإسلامي قصائد تستحق التأمل موضوعها تحمل المعاناة والصبر على المصائب. يقول أسامة بن منقذ (584 ق / 1188م)

ما استدرَجَ الموتُ قومى فى هلاكهمُ و لا تخرَّمَهم مَثنى و وُحدانَا

فكنتُ أصبرُ عنهم صبرَ مُحتسبٍ و أحملُ الخطبَ فيهم عزَّ او هانا

في عام 552ق دمر زلزال قوي قلعة شيزر وسبب في قتل الناس وخراب منازلهم. وهذا أسامة بن المنقذ يعبر عن حزنه وتحسره في قصيدته النونية وهو يصور بصدق عاطفته المشهد المؤلم لمقتل أهل شيزر ويعبر عن شدة المصاب وعمق ألمه تجاه الحدث داعيا للصبر والتحلي بالحلم في مواجهة سطوة الدهر.

يعتقد ابن الحزم انه من الجميل التحلي بالصبر في مواجهة الصعوبات ويقول:

سَنَصبِرُ بَعدَ اليُسرِ لِلعُسرِطاعةً لَعلَّ جميلَ الصَّبرِ يُعَقبنا يُسرا

فَصَبراً لِسَطوِ الدَّهرِ فيهم و حُكمِهِ و إن كانَ طعمُ الصَّبرِ مُستَثقلاً مُرَّا

مع دخول المحتلين مدينة قرطبة وما تبعها من الهجرة القسرية لسكان هذه المنطقة إلى أراض أخرى يدعو الشاعر أهل وطنه إلى الهدوء والصبر في مواجهة المصائب حتى لو كانت طعمه مريرا. يعد الصبر من التعاليم الدينية ويبشر الشاعر أهله بأن الفرج يأتي بعد الشدة وباقتباسه الآية القرآنية "إن مع العسر يسرا" يزيد من تأثير حديثه ويستعين بكلام الوحي ليضاعف حلاوة أفكاره ويجعل المشقات أكثر قبولا.

-تحويل المساجد إلى كنائس:

نرى الشاعر التنوخي (278-342ق / 892-953م) ينعي مدينة بغداد بعد أن استولى عليه الصليبيون:

عَلا الصَّلِيبُ عَلى أعلَى مَنابِرِها و قَامَ بِالأمرِ مَن يَحوِيه زُنّارُ

الشاعر يتحدّث في هذه القصيدة عن المغول ويروي كيفية استيلائهم على بغداد وكيف بنوا منها قاعدة مسيحية وأمحوا مظاهر الإسلام فيها ويصف غروب عزة الإسلام وعظمته ويعبر عن معاناته وحزنه تجاه هذا المصاب ويستخدم العاطفة الدينية لتحريض الناس وتشجيعهم على الجهاد والمقاومة.

بعد سقوط مدينة رندة في يد الأعداء الإسبان يصف أبوالبقاء حزنه على اختفاء آثار الإسلام في هذه المدينة على النحو التالي:

تَبكِي الحَنِيفِيّةُ البَيضَاءُ مِن أسَفٍ كما بَكَى لِفِراقِ الإلفِ هَيْمانُ
على ديارٍ من الإسلام خاليةٍ قد أقْفَرَت و لها بالكُفْرِ عُمرانُ
حيثُ المساجدُ قد صارت كنائسَ ما فيهِنَّ إلاّ نواقيسٌ و صُلبانُ

حتـــى المَحاريـــبُ تَبكِـــي و هـــي جامِـــدَةٌ حتّـــى المَنـــابِرُ تَرثِـــي و هـــي عيـــدانُ

فالشاعر يحرض الناس على الجهاد ويحث على المقاومة والصمود بحيث اتخذت هذه القصيدة جانبا إنسانيا وخلطت بين صدق العاطفة والصدق الفني وإن عواطفها الدينية الصادقة تثير مشاعر وضمير الرجل المسلم. إن استمرارية العبارات والصور الفنية لهذه القصيدة يؤكد موقف الشاعر من العدو المحتل وقوة إيمانه بضرورة إخراج العدو من المدن التي احتلها بالقهر والنهب

هـ. الحنين للوطن

من السمات البارزة الأخرى في الشعر الأندلسي الشوق إلى الأرض والحنين للوطن ويمكن أن يُعزى سبب هذا الشوق إلى عوامل مختلفة منها مثل القضايا السياسية والاجتماعية وطبيعة الأندلس «وذلك لتأثير البيئة الأندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية. فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد من القرن الخامس الهجرى.» (بهجت، 1988م: 332) أجبر الأندلسيون على مغادرة وطنهم والهجرة من وطنهم وذلك بعد سقوط مدن الأندلس بسبب النزعات الانفصالية والغزو الإسباني وكان ينتقل بعضهم إلى الغرب وبعضهم إلى الشرق. يصف عبدالعزيز عتيق هذه التجربة الغريبة للإنسان المسلم ويقول: وليس كالاغتراب شيءٌ يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به. وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين، سواء أكان اغترابهم بالانتقال من الغرب إلى الشرق، أم بالانتقال لسبب أو آخر من مدينة إلى مدينة بالأندلس. فكانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم، فزِع الشعراء منهم إلى الشعر يبثونه تَوقَهم وحنينهم المشبوبَ إلى أوطانهم وأهلهم وأحبابهم (عتيق، 1975م: 273) بما أن هذا الموضوع الشعرى(الحنين للوطن) لم يوجد فى رثاء المدن الشرقية فنذكر فيما يلي شواهد من قصائد الشعراء الأندلسيين.

فابن شهيد (382-426ق/ 992-1035م) ينشد لوطنه ويعبر عن حنينه إلى الأيام الخوالي:

عَهـــدِى بهـــا و الشَـــملُ فيهـــا جـــامعٌ مـــن أهلِهـــا و العَـــيشُ فيهـــا أخضُـــرُ
والـــدارُ قـــد ضَـــرَبَ الكمـــالُ رِواقَـــهُ فيهـــا و بـــاعُ الـــنَقصِ فيهـــا يَقصُـــرُ

رغم أن «ابن شهيد لم يفارق قرطبة وعاش نهاية أيام العاصمة» (مكى، 1987م: 215)، لكنه نظم قصائد رائعة يرثي فيها أرض الوطن ومجدها القديم ويعبر عن حماسة لها ومن خلالها ينقل حزنه وأسفه للجمهور. إن حنين ابن شهيد إلى مسقط رأسه هو شغف زمني لأنه نظم مراثيه متأثرا بذكر الأيام الخوالي وبلغة بسيطة حزينة شجع فيها المسلمين على الجهاد والانتفاضة على أوضاع المجتمع البائسة في ذلك الوقت على شكل لغة حزينة.

وهذا ابن حزم الشاعر الأندلسي الذي هرب من مدينة قرطبة إلى مدينة المرية عام 404ق (ابن حزم، طوق الحمامة، 112) يصف مدينة قرطبة بعبارات مريرة:

فيـــا دارُ لـــم يَقفِـــركِ منّـــا اختيارُنـــا و لـــو أنَّنـــا نَســـتَطيعُ كُنـــتِ لَنـــا قَبـــرَا
ولكـــنَّ أقـــداراً مِـــن اللّـــهِ أُنفِـــذَت تُـــدَمِّرُنا طوعـــاً لِمـــا حـــلَّ أو قَهـــرَا

يصور الشاعر بطريقة مقارنة الماضي المجيد والحاضر المضطرب للمدينة وبلغة الرثاء يعرب عن أسفه وندمه على مغادرة مدينة قرطبة ويعتقد الشاعر أن سبب دمار المدينة ونفيه هو الإرادة الإلهية اذا فقد دارت الأقدر وعليه لا مفر لك إلا أن تستسلم للمشيئة الإلهية.

غالبًا ما تكون لمراثي المدن في الأندلس والشرق الإسلامي موضوعات ومحتويات مشتركة أبرزها: وصف ازدهار المدينة ومجدها ورونقها قبل الخراب، التحسر والأسف على ما فات، تتبع جذور الفتن والأحداث والعاطفة الدينية. ومن بين هذه الموضوعات نرى وصف ازدهار المدينة ومجدها قبل الفتنة هو أكثر وفرة في قصائد شعراء القطرين.

لقد أبدع الشعراء الأندلسيون في معالجة بعض القضايا مثل شعر الاستغاثة وكان هدف هؤلاء من تأليف هذه القصائد التي تبدأ في الغالب بالمطالع الحكمية والثناء، طلب حماية المسلمين وخلاصهم من سلطة المحتلين والسعي لتحقيق الأمن والسلام لأبناء الأندلس.

كما ينتشر موضوع الحنين للوطن في القصائد الأندلسية أكثر منه في الشرق الإسلامي لأن الشعراء هذه البلاد أجبروا على الهجرة من وطنهم إثر الحروب والصراعات واستيلاء الأجانب على المدن الأندلسية بينما نادرًا ما نشاهد هذه الظروف في الشرق الإسلامي. لذلك فإن حزن الشاعر الأندلسي هو حزن الحنين للوطن ويعبر عن شدة انتماء الانسان الأندلسي وتبعيته العاطفية للوطن المهجور لكن حنين شعراء الشرق العربي يعني حزنهم على الآثار التي خلفتها الفتنة والفوضى في مدنهم التي لم يتركها الشاعر في أغلب الأحيان.

إن رثاء المدن هو فن أندلسي أصيل كانت دوافعه متشابهة إلى حد ما في الشرق والغرب. وقد وصل الشعراء الأندلسيون إلى الكمال في هذا الفن الشعري بسبب كثرة الأحداث والصراعات والحروب المختلفة وخلقوا العديد من الروائع في هذا المجال.

المراجع:

https://journals.iau.ir/article_687919.html